إضاءة

أدونيس شاعر الدهشة وكثافة الكلمة

اسمه: علي أحمد سعيد اسبر. وأدونيس هو لقب اتخذه لنفسه منذ عام /١٩٤٨م/، واشتهر به في كل مكان، حتى كاد معظم الناس أن ينسوا اسمه الحقيقي، كما حدث مع الشاعر الكبير محمد سليمان الأحمد: ((بدوي الجبل))، والأديب الأردني يعقوب العودات ((البدوي الملثم))، وبشارة عبد الله الخوري ((الأخطل الصغير)).

ولد عام /١٩٣٠م/ في قرية (قصابين) قضاء جبلة ـ محافظة اللاذقية، لأسرة فلاحية رقيقة الحال تعاني من شظف الحالة الاقتصادية، ولا غرابة في ذلك فقد كان الجهل والفقر والمرض، من سمات الحياة العامة في سورية آنذاك لأسباب كثيرة لسنا في صدد الحديث عنها.

لم يعرف مدرسة نظامية، أو خاصة، قبل سن الثالثة عشرة، لكنه قرأ وحفظ الكثير من سور القرآن الكريم على يد أبيه، الذي كان يميل بفطرته إلى[1] العلم والأدب والشعر. كما تعرف على نصوص نثرية من كتاب (نهج البلاغة) للإمام علي بن أبي طالب، كرَم الله وجهه. كذلك حفظ عدداً كبيراً من قصائد ومطولات الشعراء القدامى أمثال:

- طرفة بن العبد.
- امرؤ القيس.
- المتنبي.
- البحتري.
- المعري.
- أبو نواس.
- الشريف الرضي.

ـ المكزون السنجاري.

ـ منتجب الدين العاني.

ـ بدوي الجبل.

وفي ربيع عام /١٩٤٤م/، ألقى قصيدة ترحيبية وطنية، من بواكير شعره، أمام السيد شكري القوتلي، رئيس الجمهورية السورية آنذاك، والذي كان في زيارة ميدانية للمنطقة، فنالت قصيدته إعجاب وتقدير الحضور، بل وتعاطفهم معه، حين أبدى رغبته بالتحصيل الدراسي وحقّه المشروع فيه، فأرسلته وزارة المعارف السورية، إلى المدرسة العلمانية الفرنسية في طرطوس، فاجتاز المراحل بتفوق استدعى انتباه من عرفه.

ومن الطريف الإشارة. . إلى أن أدونيس، وهو في السابعة عشرة من عمره، كان من كتّاب جريدة (الإرشاد) لصاحبها الأستاذ أمين الحكيم، وهي يومية سياسية مستقلة، وكان من كتّابها البارزين نخبة من الشخصيات المرموقة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

ـ ادوار مرقص.

ـ المحامي عيسى سلامة.

ـ المحامي مصطفى الخش.

ـ عبد الستار السيد (مفتي طرطوس).

ـ الشيخ عبد الرحمن الخير.

ـ عبد السلام جود.

ـ عبد العزيز أرناؤط.

وكانت هذه الجريدة المحلية، التي تطل على القراء صباح كل يوم، من اللاذقية، تحتفل بكتابات علي أحمد سعيد، وتنشر له ما يجود به قلمه في الصفحة الأولى من الجريدة المذكورة. وسوف نوثق هذه الكتابات، وإن كانت ساذجة، في هذا الكتاب. كما نشر بعض شعره منذ أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، في مجلة (القيثارة)، وريثة مجلة (أبوللو) المصرية، وكانت (القيثارة) تصدر في مدينة اللاذقية، ونورد هنا كوكبة من أسماء الأدباء الذين أسهموا بتزويد المجلة بإبداعاتهم وترجماتهم:

ـ الشاعر نديم محمد.

ـ الشاعر أحمد الجندي.

ـ الشاعر أحمد علي حسن.

ـ الشاعر ميشيل طراد.

ـ الشاعر مفيد عرنوق.

ـ الأديب بديع حقي.

ـ فاتح المدرس.

ـ نجم الدين الصالح

ـ عبد الرحمن الخيّر

ويتابع أدونيس دراسته الجامعية في كلية الآداب، قسم الفلسفة، بجامعة دمشق العريقة، حيث تخرج مجازاً في الفلسفة. عن هذه المرحلة حدثني رفيق أدونيس الشاعر علي الجندي، بما معناه: ((من زملائي في الجامعة: صدقي اسماعيل، وجورج صدقني، وشوقي بغدادي، وسعيد حورانية، وأدونيس الذي كان مقنعا بتهذيب شديد لم أكن أملكه. . بل كنتُ فوضوياً.

في بداياته كان أدونيس واقعاً تحت تأثير يوسف الخال، وسعيد عقل، لكنه سرعان ما تخلص من قبضتهما حتى أصبح ظاهرة متميزة في الشعر العربي، بل أحد مهندسي القصيدة الحديثة، ولا غرابة إذا كان مصاباً بحالة نرجسية، لأنه يعتبر نفسه الصوت الأول على خارطة الشعر الحديث، ولا يغفر لأحد أن ينفي عنه هذا الشرف وهذه الريادة)).

ويلتحق بالخدمة العسكرية عام /١٩٥٤م/ وقضى منها سنة في السجن، بلا محاكمة، بسبب انتمائه، وقتذاك، للحزب السوري القومي الاجتماعي الذي انسحب منه عام /١٩٦٠م/، بعدها غادر سوريا إلى لبنان عام /١٩٥٦م/ ، حيث التقى بالشاعر يوسف الخال، وأصدرا معاً مجلة (شعر) في مطلع عام /١٩٥٧م/ ثم انفصل عن جماعة مجلة (شعر) بين وانسحب بهدوء من رئاسة تحرير المجلة عام /١٩٦٠م/ ، ليصدر مجلة (مواقف) بين عامي /١٩٦٩م/و/١٩٩٤م/.

درّس في الجامعة اللبنانية، ونال دكتوراه الدولة في الآداب عام/١٩٧٣م/، وأثارت أطروحته ((الثابت والمتحول)) سجالاً طويلاً ومناقشات حادة في الأوساط الثقافية العربية.

بدء من عام/١٩٨١م/تكررت دعوته كأستاذ زائر إلى جامعات ومراكز للبحث، في فرنسا، وسويسرا، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية. كما وتلقى عدداً من الجوائز اللبنانية والعالمية، وألقاب التكريم، وترجمت أعماله إلى ثلاث عشرة لغة.

أدونيس في ذاكرة محمد الماغوط

يقول شاعر الحزن محمد الماغوط في شهادة له عن أدونيس بما لفظه:

((. . **تعرفت على أدونيس في سجن المزة بدمشق. وكان شاعراً معروفا. بعدها التقيته في بيروت وقدّمني لجماعة مجلة (شعر)، لكني أعتقد أنه لا يمانع اليوم في تقديمي لمحكمة نورمبرغ.**

مشكلة أدونيس أنه يتخيل الحرب من دون أن يعيش في وحل الخندق. لا أنكر أنه شاعر مهم، وأعتقد أن قصيدته ((قبر من أجل نيويورك)) إحدى أهم القصائد في الشعر العربي الحديث، لكنه ما إن غادر إلى الغرب حتى فقد أصالته. إنه معلم في الشرق وتلميذ في الغرب. ثم لماذا كل هذا التنظير للقصيدة، وماذا يعني القارئ إن وضعت كلمة أو حرفاً على يسار حرف، أو نقطة على خصر نقطة.

إذا كانت السجون والمستشفيات والأرصفة تغص بروّادها. مأساة ليس الشعر العربي وحده فحسب بل الحياة العربية بأسرها، تكمن في الازدواجية على حساب التفرد، والمكر على حساب البراءة.

أنا لا أحب القصيدة الفكرية، وأدونيس كل شعره فلسفة، وهو منذ البداية، يعرف إلى أين يذهب وكيف يسير، منظم ومرتّب. لا أفهم شعره. .)).

ويقول الشاعر الماغوط أيضاً:

((. في العام /١٩٥٥م/ سجنت وأمضيت تسعة أشهر، وفي العام /١٩٦١م/ أمضيت ثلاثة أشهر. . . وفي السجن تعرفت على أدونيس. كنا في زنزانتين منفصلتين، وكنت أراه من بعيد. . . .

حين كتبت قصيدة ((قتل)) لم أكن أعلم أنها ((شعر)). كنت أكتب معاناتي في السجن فقط لا غير. وظللت أكتب وأكتب على أساس أن ما أكتبه مجرد مذكرات سجين يتعذب، ويتألم، ويتأوه فقط، وليست قصيدة على الإطلاق، وقد كتبتها على ورق التبغ، وهرّبتها خارج السجن، ولكن حين قرأها أدونيس، قال: ((هذا شعر)). فقلت:

هل أنت متأكد مما تقول ؟ قال: ((نعم)). وفي إحدى جلسات مجلة ((شعر)) قرأ أدونيس قصيدتي بحضور يوسف الخال، وأنسي الحاج، والرحابنة، دون أن يعلن عن اسمي، وترك المستمعين يتخبطون (بودلير. رامبو)، لكن أدونيس لم يلبث أن أشار إليّ وقال: هذا هو الشاعر[1])).

يعتبر أدونيس في طليعة الشعراء العرب، إذا لم نقل الرائد الأول، الذين طوّروا الشعر العربي المعاصر، من حيث الشكل واللغة والمضمون. وهو يعنى خاصة بالتعبير الشعري واستغلال الطاقة الإيقاعية والإيحائية للكلمة. وهو يرى أن القصيدة ينبغي أن ترتفع إلى حدود الرؤيا الكونية الخالصة، وأن للحلم دوراً في الدخول في الحالة الشعرية، وأن مهمة الشعر هي الكشف عن الأسرار وخلق حالة تتجاوز التناقضات.

عالج في شعره مشكلات كيانية يعانيها في حضارته ومجتمعه وتراثه وفي ذاته كذلك، بغية بناء عالم جديد وإنسان جديد، لأن مهمة الشاعر، برأيه، تغيير العالم. ومن هنا كان هاجس أدونيس الخروج على التقليد وإنتاج لغة جديدة تعتمد من بين وسائلها، التداعي وتطمح إلى كشف الأسرار الكونية الكبرى.

شعره شعر الدهشة والصعوبة والإبهار والصورة المبتكرة، وكثافة الكلمة وعمق الفكرة، واستخدام الأسطورة والرمز والصوفية.

وفي هذا الصدد يقول أدونيس:

((إن اللغة الصوفية هي تحديداً، لغة شعرية، وإن شعرية هذه اللغة تتمثل في أن كل شيء فيها يبدو رمزاً: كل شيء فيها هو ذاته وشيء آخر. والحبيبة، مثلاً، هي نفسها، وهي الوردة، أو الخمرة، أو الماء، أو الله. إنها صور الكون وتجلياته،

---

[1] انظر كتاب اغتصاب كان وأخواتها، للأديب خليل صويلح، منشورات دار البلد بدمشق.

ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن السماء أو الله أو الأرض. فالأشياء في الرؤيا الصوفية، متماهية، متباينة، مؤتلفة مختلفة.

وهي في ذلك تتناقض مع اللغة الدينية ـ الشيء هو ذاته لا غير. بهذه اللغة تخلق التجربة الصوفية عالماً داخل العالم، تتكوّن فيه مخلوقاتها، تولد وتنمو، تذهب وتجيء، تخمد وتلتهب. في هذا العالم تتعانق الأزمنة في حاضر حيّ[٢])).

هكذا يتضح لنا من هذا الكلام أن أدونيس يؤمن بالرؤيا الصوفية وتجلياتها وبطرقها التي تسعى إلى إدراك الحقيقة. ومن هنا يصعب على القارئ فهم شعر أدونيس، إذا لم يكن على معرفة ودراية بالمصطلحات الصوفية ورموزها، والتجربة الصوفية، على حد تعبير الدكتور ميشال خليل جحا.

يمتاز أدونيس عن سائر الشعراء العرب المعاصرين، بأنه كتب حول الشعر ونظرياته وقضاياه أكثر مما نظم من شعره. فهو على دراية واسعة وعميقة بجمل التراث الشعري العربي القديم، وواع للدور الذي يجب على الشعر أن يلعبه في زماننا، ومواكب لحركة الشعر العالمي. وهو يميز بين ((الحديث)) و((الجديد)). فللجديد معنيان:

زمني وهو في ذلك آخر ما استجدّ، وفني، أي ليس في ما أتى قبله ما يماثله. أما الحديث فذو دلالة زمنية ويعني كل ما لم يُصبح عتيقا. كل جديد، بهذا المعنى حديث ـ لكن ليس كل حديث جديداً .. وهكذا نفهم كيف أن شاعرا معاصراً لنا أو يعيش بيننا، قد يكون في الوقت نفسه قديماً. الجديد إذن يتضمن معياراً فنياً لا يتضمنه الحديث بالضرورة. فمعيار الجديد يكمن في الإبداع والتجاوز وفي كونه مليئاً لا يُستنفد. من هنا يمكن القول في مجال التقويم: ((إن دلالة التجديد الأولى في الشعر هي طاقة التغيير التي يمارسها بالنسبة إلى ما قبله وما بعده، إلى طاقة الخروج على الماضي من جهة، وطاقة احتضان المستقبل من جهة ثانية[٣]))

كيف نفهم، والحالة هذه حركة الشعر الجديد؟

---

(٢) الصوفية والسوريالية، أدونيس،دار الساقي. بيروت،ط١ ،١٩٩٢.

(٣) الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، د.ميشال خليل جحا،ص ٤٠٣، دار العودة. بيروت ١٩٩٩.

يقول أدونيس:

((نفهمها أولاً، بالتعاطف معها. فالشعر الجديد تجربة شاملة معقدة، جديدة. وهو، ككل تجربة، يحتاج في فهمه إلى الإيجابية، وإلى التعاطف. ونفهمها ثانياً بأن نخلص وعينا وعقليتنا من الأمور التالية:

١ـ السلفية، فالعقلية السائدة في المجتمع العربي عقلية سلفية ينبع مثلها الأعلى من الماضي لا من المستقبل.

٢ـ النموذجية، وأعني بها الكمال الشعري من وجهة نظر العقلية السائدة، كائن سابقاً في التراث الشعري العربي. وعلى الشعراء في المستقبل أن ينسحبوا على منواله، فليس لمتأخر الشعراء، كما يقول ابن قتيبة، أن يخرج على مذهب المتقدمين.

٣ـ الشكلية، فالتعلق بالنموذج أدى إلى التعلق بالشكل. فليس الشعر، من وجهة نظر العقلية السائدة، رؤيا، بل صناعة ألفاظ.

إن الشعر العربي، من هذه الناحية، لا ينبع من كيفية رؤيا العالم وخلقه، بل من كيفية رؤيته وصنعه.

٤ـ جزيئية، فلا تنظر العقلية السائدة إلى القصيدة ككل وكوحدة، بل تنظر إليها كأجزاء منفصلة مستقلة.

٥ـ الغنائية الفردية، فقد درجت العقلية السائدة في المجتمع العربي على فهم أو تذوق الشعر العربي الذي هو غنائي فردي في مجمله، إذ يعكس انفعال الشاعر كفرد، أو أوضاعه الاجتماعية كفرد.

٦ـ التكرار، فالثقافة العربية ثقافة إعادة وتكرار. إنها تدور ضمن عالم مغلق، محدد قبليا، لا حركة فيه. هذه الثقافة، حقائق أبدية، أزلية، لا يجوز تخطيها[٤].

ومما يسترعي الانتباه في الكثير من قصائد أدونيس، غياب الدلالة أو المعنى، الذي يقود إلى الإبهام الدلالي فيه. ندرك هذا من نصوصه الشعرية التي تتحرك عباراتها وجملها ومفرداتها في مناطق تبدو مقفرة دلالياً، بسبب غياب البؤرة الدلالية الشاملة، التي تغذي النص دلالياً من ناحية، وتعين على تحديد مرجعياته الواقعية من ناحية أخرى.

---

(٤) زمن الشعر، أدونيس،ص ٢١ ـ ٢٢، دار العودة ـ بيروت ١٩٨٣

ويبدو أن أدونيس وغيره من شعراء الحداثة العربية المعاصرة، يعون هذا الفراغ الدلالي في النص، ويسعون إليه، ويطمئنون إلى وجوده في شعرهم، يقول أدونيس:

قيدت سفني بالرياح،

وفوضت أمري إلى الموج،

افتح يديك، أيها المعنى، وانظر:

ما أفرغهما

وما أحنّ هذا الفراغ

فالمعنى عند أدونيس فارغ من المعنى، كأن اللامعنى هو المعنى، وهو الأساس، وهو الملجأ الحنون[٥]. ويفسر د. عبد الرحمن محمد القعود هذه الظاهرة بما معناه: ((وإذا كان التشتت الدلالي في النص الشعري الحديث، صدى للحداثة ومقولاتها، فهو، أيضاً، صدى ومفرَز لنوعية الحياة والمكان اللذين تشكلان الحداثة فيهما، ففي المدينة الحديثة تشتت الناس وتشتتت حياتهم، ولم يعد ترابط العائلة وتماسكها كما كان...وساكنو البناية الواحدة لا يتعارفون، لقد تشتت الروابط والعلاقات بتشتت الحياة، وتشتت القيم، فانعكس هذا على الأدب، فتبخر معناه وصار أثيراً بعد أن كان صلبا. وبيئة الحداثة قلقة متقلبة انعكست على إنسانها بالتشتت وعدم الاستقرار. فانسرب هذا إلى إبداعه الشعري فتشتتت دلالته[٦])).

كان ما ذكرناه سابقاً ملاحظات سريعة حول تجربة أدونيس الشعرية، التي أوصلته إلى العالمية بجدارة، مما قد يتيح له في المستقبل القريب الفوز بجائزة نوبل التي تعني الكثير بالنسبة إليه...

فهل يتحقق حلمه الذهبي؟ لا سيما وأنه أصبح الأديب العربي الأكثر إثارة للجدل في الشرق وفي الغرب، وانقسم الناس حوله بين مؤيد محب، وبين لاعن

---

(٥) الإبهام في شعر الحداثة، د.عبد الرحمن محمد القعود، سلسة عالم المعرفة رقم ٢٧٩، آذار ٢٠٠٢م

(٦) المصدر السابق ص ٢١١.

ساخط، لذلك نعتوه بـ ((الشعوبي)) و ((المارق)) و ((المرتد)) و ((المخرب))...لكن أدونيس يعي ما يفعل ويصنع من متغيرات ثقافية في الحياة العربية الراكدة، من أجل أن تسطع شمس العرب من جديد.

ولعلَّ خير ما نختم به عن الشاعر الكبير أدونيس، هذه الشهادة الناطقة الواقعية التي أطلقتها السيدة الأديبة الموهوبة خالدة سعيد التي رافقت الشاعر منذ مدة طويلة، فتمكنت من الولوج إلى أعماقه التي تشابه الخلجان السرية...

تقول الناقدة خالدة سعيد

((تسجل هذه المختارات من شعر أدونيس فصولاً من مغامرته الشعرية التي زعزعت المستقر، واستقصت موروث اللغة، وجدّدت ماء القصيدة وبناءها، وابتدعت فيها المعاني. منذ أعمال أدونيس الأولى /١٩٥٤م/ التي تتصدر هذه المختارات، يتبدى الحس الطاغي بالزمان، ومع توالي القصائد، تتصاعد حركة الزمن وتتأزم، حيث يصطرع الماضي ورؤى المستقبل، والذاكرة والخيال، على ساحة الخريطة العربية، ثم على الكوني.

لا تستريح القصيدة عند أدونيس في شكل مستقر، فقصائده تاريخ من البحث والتجاوز وإعادة النظر. والحداثة عنده ليست شكلاً يبلغه الشعر، بل مشروع تصور جديد للكون. وينهض الشاعر بمشروعه الكبير مستنداً إلى رؤية معرفية متكاملة للإبداع، ودوره في التاريخ وموقعه من العالم)).

❖ **من أعماله الشعرية:**

قصائد أولى، ١٩٥٧.

أغاني مهيار الدمشقي، ١٩٦١.

كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل، ١٩٦٥.

هذا هو اسمي، ١٩٨٠.

احتفاء بالأشياء الغامضة الواضحة ١٩٨٨.

أبجدية ثانية ١٩٩٤.

❖ **من أعماله النثرية(دراسات):**

مقدمة للشعر العربي ١٩٧١.

زمن الشعر ١٩٧٢.

الثابت والمتحول (في أربعة أجزاء) ١٩٤٤.

فاتحة لنهاية القرن، ١٩٨٠.

الصوفية والسوريالية ١٩٩٢ .

ها أنت أيها الوقت، ١٩٩٣.

❖ **من مختاراته الشعرية:**

مختارات من شعر يوسف الخال، ١٩٦٢.

ديوان الشعر العربي، في ثلاثة أجزاء، ١٩٦٤ و ١٩٦٨.

مختارات من شعر السيّاب، ١٩٦٧.

مختارات من شعر شوقي (مع مقدمة) ١٩٨٢.

مختارات من شعر الرصافي (مع مقدمة) ١٩٨٢.

❖ **من ترجماته:**

مسرح جورج شحادة ١٩٧٢ و ١٩٧٥.

الأعمال الشعرية الكاملة لسان جون بيرس، منارات، ١٩٧٦.

كلمة أخيرة. . . .

أدونيس في شعره مثال الفنان العظيم الذي يبدع في جميع رسوماته ولوحاته. فهو يستخدم الألغاز المبهمة، ويستعمل الطلاسم الغريبة النادرة العجيبة. تراه يستخرج من وحي خياله رسوما جديدة شتى يضمها إلى لوحاته الجميلة، في الطبيعة الصادقة الساحرة، فيجعلها ملونة عذراء كالشقائق، لا بل، إنه قد يصنع منها المعجزة الخارقة الكبرى، أو الأعجوبة في الحرف والقصيدة على حد سواء.

فشعر أدونيس إذاً يتسم بالمتعة والجمال والجودة، ويشكل مدرسة خاصة قائمة بحد ذاتها، إن لم نقل إن شعره يشكل عدة مدارس. يخيل إليك وأنت تقرأ شعر أدونيس، أنك تتحسس كلمات عابرة على صفحة ماء، أو بالأحرى أنك تقتفي آثار رسوم باهتة في وجه قمر بعيد[٧].

---

(٧) أعلام الأدب في لاذقية العرب،فؤاد غريب،ج ٢ . القسم الرابع (المعاصرون) ط١، ١٩٧٨.